القيمة الحجاجية في الخطاب التّفسيري
"مجالس التّذكير من كلام الحكيم الخبير" لابن باديس"
-أنموذجا-

عباس حشاني *
1- جامعة محمد الصدّيق بن يحي - جيجل-abbachachani@yahoo.fr

الإرسال: 2019/09/06 القبول:2020/10/18 النشر: 2020/12/10.

الملخص:

يتناول هذا المقال إحدى أهم النظريات التداولية ألا وهي نظرية الحجاج بترصد القيمة الحجاجية داخل الخطاب التفسيري ، الذي يُبنى من مكونات الخطاب الأصلي فيكون بهذا خطابا تفسيرا وظيفيا ، وتتحدد إشكالية الموضوع في بيان مدى حجاجية الخطاب التفسيري واستخدام وسائله وأدواته للتأثير في العقول والأذهان والسلوك.

يسعى هذا المقال إلى دراسة تقنيات ووسائل الخطاب التفسيري الحجاجي عند ابن باديس في كتابه " مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير" من خلال سورة النحل باستخراج الآليات الحجاجية وتقنياتها الكامنة في تفسير القران.

هذه الآليات متعددة وتختلف باعتبارات المُفسّر وباعتبار الخطاب التفسيري ، وإلى من يُوجه هذا الخطاب؟ ومدى مساهمة الخطاب التفسيري ونجاعته في إقناع المتلقي والتأثير فيه.

الكلمات المفاتيح: الخطاب ، الهدف ، الحجاج ، المتكلم ، المتلقي ، الإقناع ، التأثير.

The argumentative value in interpretative discourse

* **المؤلف المرسل**: عباس حشاني عباس حشاني ، abbachachani@yahoo.fr

EISSN :2602-5353 / ISSN : 2170-0583

المنارة للاستشارات

Summary: This article discusses one of the most important pragmatic theories ; which is the theory of argumentation,to reveal the argumentative value within the interpretative discourse, which is constructed of the segments of the original discourse, so that it will be a functional interpretative discourse, this problomatic topic is determinated by the frequency of argumentation in the interpretative speech , using it means and devices in order to effect minds, intellects and behavior.

This article attempt to study the techniques and means of interpretatve argumentative discourse, in **Ibn Badis**'s book tituled : **Majalis altadhkir min kalam alhakim alkhabir** through surat **al Nahl ;** by extracting the argumentative mechanisms and it's technics employed in the interpretation of the Quran.

These several mechanisms differ according to the interpreter and the interpretative discourse . To whom this speech is directed ? and to what extent the interpretive speech have contributed in convincing and effecting the recipient.

Key words: speech, target, pilgrim peaker, receiver , persuasion, influence

مقدمة: التفسير فعل عمدي واع ، بحيث لا يمكن تفسير شيء من لاشيء ، فالتفسير يتم إنتاجه من نصوص سابقة لتكون كفعل موجه لبلوغ أهداف حددها المُفسِّر سابقا ، ولا يمكن أن يكون هذا التفسير إلا بانتقاء وسائل لغوية بإجراءات مختارة وأسلوب ومستوى تعبير ،حيث تنتظم هذه العناصر لتشكل بنية الخطاب التفسيري ، وهذا ما يمنحه خصوصية التركيب ممثلة في إنتاج خطاب فرعي من آخر أصلي ، وفي وظيفة المفسر التداولية إذ يُعيد بعض الدلالات الثانوية والباطنة للنّص المُفسَّر وفق مستويات لغوية جديدة وهيئة جديدة ، حيث تتماشى والدّلالة الأصيلة للنّص أو ما يتطلبه الحال(حال المتلقي).

المنارة للاستشارات

يأخذ الخطاب التفسيري طابعا لغويا جديدا ، فيه تنشر المقولات الجديدة للدلالات وصيغ تعبيرية ذات أشكال وبنيات غير مألوفة ، وهذا ما يجعل للخطاب تركيبا حجاجيا جديدا ، وهذا ما تحاول نظرية الحجاج أن تبين حدوده ووسائله من خلال علاقة الوحدات الدلالية داخل اللغة وتركيب الخطاب بالمقام. وعليه يُطرح التساؤل الأتي: ما هي الوسائل التي يعتمدها الخطاب التفسيري ليكون أكثر حجاجية ؟ هل بمقارنته مع معنى النص الأصلي أم من خلال آليات تداولية وبلاغية ؟

يُعدّ النص المفسر بطبيعة الحال إعادة إنتاج وتذليل لدلالاته ضمن بنية معينة وآلية محددة تضمن إقناع المتلقي وحتى إفحامه ، وهذا ما سنراه من خلال "مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير". فلماذا عمد المُفسّر " لتفسير القرآن ؟ وما هي طريقته في ذلك ؟ وما هي الشروط التي يتصف بها المُفسر ؟ وما هو الخطاب التفسيري ؟

1-2- شروط المُفسِّر المُحَاجِج:

توطئة: التفسير شرح للقرآن إلا أنه يشمل شرح لغة القرآن ودراسة إعجازه وبيان أحكامه ، ومعرفة سبب نزول الآيات والسور وترتيبها[1] . ويعني هذا أن التفسير أشمل وأكبر من الشرح ، بعدّ هذا الأخير آلية من آلياته. بالإضافة إلى مصطلح "التفسير" وتداخله مع الشرح فإنه في المقابل يتداخل مع مصطلح التأويل الذي يعني: «أخذ المعنى على غير محمل الكلمات وتجاوز الظاهر إلى الدلالة الخفية.»[2]

يقع التأويل - أيضا- تحت جناح التفسير لأنه الأشمل ، ليكون الآلية الثانية بعد الشرح إذ «التفسير: ما كان راجعا إلى الرواية ، والتأويل ما كان راجعا إلى الدراية»[3] . ويُعرف بأنه:« علم يبحث عن مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية »[4] .

يتحدد الفضاء الأرحب للتفسير وهو الفضاء العربي الإسلامي ؛ لأن القرآن الكريم قد فُسّر عددا من التفاسير مختلفة التّوجهات ،تحتكم إلى علوم القرآن ، وعلم أصول الدين والفقه بالإضافة إلى جمع السنة المحمدية المطهرة وتفسيرها وقصص الأنبياء ونصوص المذاهب الفقهية وأصحاب الملل والنحل ومذاهب السنة والشيعة بكل تياراتها.[5]

عُدَّ علم التفسير أكثر صيغ إنتاج النصوص انتشارا ، ويعرفه "**إدموند باربوتان**" (**Edmond Barbatin**) بأنه « عمل على عمل ، وخطاب على خطاب ، بغرض خدمة معنى يُعتقد أنه ذو

EISSN :2602-5353 / ISSN : 2170-0583
المنارة للاستشارات

قيمة كبيرة مع ما يحمل ذلك من أخطار لتشويه المعنى، أو إفقاره أو تذويبه في تفاهة المدارسة»[6]. التفسير «كتابة عن الكتابة ووظيفته تتمثل في تجلية الجوانب الأكثر بروزا في العمل الأدبي والأكثر إثارة أو التباسا»[7].

نخلص إلى أن طبيعة التفسير حجاج في مظهره، وطبيعته ونظامه، فالنّص الأصلي والمُفسَّر و ترابطهما، وفي غاية المُفسِر والمتكلم الأصلي وفي هدفهما مظاهر حجاجية للتفسير بالنظر إلى آلياته ووسائله وأهدافه، كما أن إنتاج النصوص تساهم فيه العديد من العمليات منها الشرح والتفسير والتأويل والترجمة، إذ يُعدّ النّص الأصلي علّة لإنتاج خطاب جديد، كما يمكن القول أن النص يمكن أن يتساوى مع النّص المُفسَّر لأنهما بمعنى واحد ويختلفان من حيث الحجم والمعاني الأصلية، كما يمكن تحديد الفرق ودرجة التباين بين عمليات التفسير: الشرح والتأويل من الناحية الإجرائية وأن ينهض كل مفهوم بوظيفته الخاصة.

يمكن عدّ هذه الشروط، آليات حجاجية مكنت المُفسِّر من بلوغ هدفه وتوعية الفرد الجزائري من الجهل والسعي وراء الحرية:

- أن يكون عالما بالقرآن.
- أن يكون عالما باللغة لأن يكون عالما بالنحو فالمعنى التفسيري يختلف باختلاف الإعراب.
- أن يكون عالما بالصرف لأنّ الاسم إن كان اشتقاقه من مادتين مختلفتين اختلف المعنى باختلافهما.
- أن يكون عالما بعلوم البلاغة: المعاني ،والبيان ،و البديع.
- أن يكون عالما بأصول الدين(العقيدة) وبفن الناسخ والمنسوخ وبالحديث.

التفسير الموضوعي «منهج مستحدث في الدراسة القرآنية، يستهدف سبر أغوار الموضوعات المختلفة من اجتماعية وأخلاقية وكونية وغيرها، من خلال تفسير سور القرآن، بعدّها كلا يعبر عن موضوع واحد ،أو من خلال تفسير الآيات المجموعة للتعبير عن عناصر موضوع معين، لغرض الخروج بتصور سليم أو نظرية عملية فيه»[8].

المنارة للاستشارات

الغرض الذي يعمد المُفسِّر إلى تحقيقه يخضع إلى آليات ووسائل ، هي تلك التي تمثل الدراسة الحجاجية في التفسير الباديسي وتظهر في علاقة التفسير بالمشافهة ، ذلك أنّ تفسيره ورد شفويا لشيء في نفسه إذ «كان يرى حين تصدى لتفسير القرآن ، أن تدوين التفسير بالكتابة مشغلة عن العمل المقدم لذلك آثر البدء بتفسيره درسا تسمعه الجماهير فتتعجل من الاهتداء به ما يتعجله المريض المنهك من الدواء ، وما يتعجله المسافر العجلان من الزاد»[9]. وقد اقتصر المفُسِّر على تفسير القرآن مشافهة« لولا أنه كان مشغولا مع ذلك بتعليم جيل وتربية أمة ، ومكافحة أمية ، ومعالجة أمراض اجتماعية ومصارعة استعمار».[10]

لقد كان تفسيره يستهدف الإصلاح العقدي والخلقي والاجتماعي والسياسي للمجتمعات التي فسرت فيها.

لم يكن مقدرا أن تكون هذه التفاسير متداولة في يوم من الأيام بين أيدي القراء ، فقد تحولت هذه التفاسير من الطابع الشفهي إلى مؤلفات مكتوبة ، وهذا ما يميزها عن بقية التفاسير ، وصارت ظاهرة علمية مميزة تتطلب البحث والتنقيب لاكتشاف خصائصها بهدف الاستفادة منها في المجال الدعوي والإصلاحي ، كانوا جميعا يهدفون إلى الإصلاح بمنهج الرسول — صلى الله عليه وسلم- نفسه وهو تبليغ معاني القرآن الكريم تبليغا مباشرا ، ليفهم فيؤدي دوره في إصلاح النفوس وما ينبثق عنها من أعمال وأقوال وسلوكات.[11]

إنّ الهدف من التفسير الشفاهي هو التغيير الآني وإحداث انقلاب وتغير في النفوس من أجل إحياء الشعوب الميتة ، «فالشيخ عبد الحميد بن باديس كما يذكر أحد طلابه قد أدلى بتفسيره الشفوي أثره البالغ في النفوس في تلك الحقبة المظلمة»[12].

ما يمكن اكتشافه من هذا التفسير صبغته النفعية التداولية في سمته الشفهية ؛ فهو حديث موجه للمستمعين الخاصة منهم والعامة على حد سواء ، ومن ثم رُوعيت فيه خاصية "التيسير" التي من شأنها تسهيل التلقي المعرفي دون جهد كبير قد لا يطيقه جميع الناس ، فضلا عن كون التفسير القرآني ليس له من هدف سوى أن يفهم فهما عمليا ليعمل به طبقا لقول الله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ**﴾ [**القمر الآية :17.**]

قد قُدّر للمفسِر أن يبلغ مراده وغايته من تفسيره للقرآن الكريم ، كما يذكر "**مالك بن نبيّ**"[13] « أنه أحاط منهجه بالشروط التي أحاط بها النبي محمد صلى الله عليه وسلم دعوته ؛ ففي

EISSN :2602-5353 / ISSN : 2170-0583
المنارة للاستشارات

رأيه لكي يتم تغيير الفرد لم يستخدم ذلك الزعيم سوى الآية القرآنية ، ولكنه كان يستخدمها في نفس الظروف النفسية التي كان يستخدمها النبي صلى الله عليه وسلم ، وهذا هو السر كله أن تستخدم الآية كأنها فكرة موحاة لا فكرة محررة مكتوبة ، وإذا كان قد أتيح لذلك الزعيم أن يؤثر تأثيرا عميقا في سامعيه فما ذلك إلا لأنه لم يكن يفسر القرآن بل كان يوحيه إلى الضمائر التي يزلزل كيانها ، فالقرآن لم يكن يفسر القرآن بل كان يوحيه إلى الضمائر التي يزلزل كيانها... فالحقيقة القرآنية تتجلى هنا بأثرها المباشر على الضمير وبتأثيرها على الأناسي والأشياء»[14].

نجاح المُفسِّر يحصل إذا كان عارفا باللغة ، «وليس من شك في أن أحسن قاعدة للتلقي هي التمكن من اللغة بكل ما تعبر عنه كلمة اللغة من إمكانات».[15]

يتسم التفسير الذي بين أيدينا بالطابع الموضوعي إذ يمكننا «من تحديد معالم المنهج ويأتي على رأس تلك المعالم والشروط التحكم في طريقة التوالد المعرفي ، تجاوز أسلوب التكديس إلى أسلوب البناء ، والإدراك المهيمن للموضوع والقدرة على جمع الآيات بوعي وتفكيكها بوعي ، ونضج المُفسِّر ذهنيا وتصوريا وإتقان اللغة ، وإحضار البعد الحقيقي ، وسيادة الفقه الخالص ، وتحديد غرض الموضوع وصياغة النتائج صياغة علمية»[16].

2- منهج الشيخ ابن باديس في التفسير: يستهل المفسِّر عمله التفسيري **بتمهيد** حيث يعمد إلى :

1- **وضع القارئ** في جو النص القرآني المراد تفسيره ، معتمدا في ذلك على سبب نزول الآيات المفسرة ، أو ربطها بما سبقها أو بذكر ما يثير انتباه القارئ إلى المعنى الذي تعالجه الآية الكريمة. ثم يعقب الشيخ على ذلك:

2- **شرح لغوي** للمفردات الأساسية شرحا يساعد القارئ على فهم مضمون النص بيسر ووضوح. ثم يعمد إلى:

3- **تحليل** مركزا على الآيات والعبارات والتراكيب ، ليبرز خصائص الأسلوب العربي. وبعد هذا ينتقل المُفسّر إلى:

4- **استخراج** ما في النص القرآني من حقائق وقيم مختلفة وكونية واجتماعية وأخلاقية ، نفسية ، وتاريخية مركزا في ذلك على البيئة الجزائرية بصفة خاصة ، وهذا يظهر لماذا عمد

المنارة للاستشارات

الشيخ لتفسير القرآن والسنة لجلاء حالة الجزائريين ومعرفة العمل على تغيير تلك الحالة بطريقة غير مباشرة... ثم يظهر ذلك بصفة عامة على الأمة الإسلامية وعلى المجموعة الإنسانية بصفة أعم ، وهذا ما كان له الأثر الفعال في نفس كل من يسمع تفسيره أو يقرأه.[17]

صفوة القول إنّ المنهجية التي اتبعها المُفسِر منهجية حجاجية تسعى للتأثير في نفس القارئ أو السامع ، لإحداث التغيير الآني ، لأنه في تلك الفترة لم يكن ليصرح بالجهاد ، فآثر أن يرمز إليه ويحمس له النفوس ويشحن الهمم بتفسيره ، فالمؤمن العربي العالم لأصول دينه لا يرضى بالاستعمار.

بالنظر إلى منهج التفسير يمكن تحديد الآليات الحجاجية التي اعتمدها المفسِّر وذلك من خلال تفسيره [**الآية:125 من سورة النحل**] ، قال تعالى: ﴿ **ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ.** ﴾

نرى أن الآلية الحجاجية الأولى المتمثلة في التمهيد الذي يقدمه المفسِّر تضع القارئ أو المتلقي في جو النص القرآني المراد تفسيره ، فيقول:« شرّع الله لعباده - بما أنزل من كتابه ، وما كان من بيان رسوله- ما فيه استنارة عقولهم و زكاء نفوسهم واستقامة أعمالهم»[18].

نخلص إلى أن المُفسِّر كان يعمد في تمهيده إلى جعل المستمع أو القارئ هو المخاطب في هذه الآية ، ويظهر هذا جليا في ذكره سبب تسمية كلمة "سبيل" في الآية إذ يقول: « وسماه سبيلا ليلتزموه في جميع مراحل سيرهم في هذه الحياة ، ليفضي بهم إلى الغاية المقصودة ، وهي السعادة الأبدية في الحياة الأخرى»[19].

ثم يعمد المُفسِّر" إلى بيان أن كلمة "سبيل" أضافها الله إلى نفسه ليعلموا أنه هو الذي وضعه ، وأنه لا شيء يوصل إلى رضوانه سواه. و الهدف من هذا جعل القارئ أو السامع يعمل بما تنص به الآية بعد أن شرّعه لرسله وأضافه إلى اسمه ، وأن السعادة ونيل الجنة لا تكون إلا بإتباع سبيل الله. ثم ينتقل الشيخ إلى الجانب اللغوي فيقول:« وأمر نبيه عليه السلام أن يدعو الناس ، وحذف معمول "ادع" لإفادة العموم إلى هذه السبيل فقال:" ادع إلى سبيل ربك" »[20].

EISSN :2602-5353 / ISSN : 2170-0583
المنارة للاستشارات

يكتسب التفسير حجته من القائل الأول للكلام الأصلي الله عزّ وجل ، ثم المُوجه إليهم وهم الرسل ، ثم إلى الناس عامة ،وهذا ما اهتدى إليه الشيخ إذ يقول: « أمر الله نبيه عليه الصلاة والسلام أن يدعو إلى سبيل ربه وهو الأمين المعصوم ، فما ترك شيئا من سبيل ربه إلاّ دعا إليه ، فعرفنا بهذا أن ما لم يدع إليه محمد — صلى الله عليه وسلم- فليس من سبيل الرب جل جلاله ، فاهتدينا بهذا إلى الفرق بين الحق والباطل والهدي والضلال ودعاة الله ودعاة الشيطان»[21].

هنا يعلم القارئ أو المستمع أنه معني بهذه الدعوة وأن كلام الله معمم يقصده هو أيضا بهذه الآية ، وفي هذا يقول المفسِّر: « فمن دعا إلى من دعا إليه النبي صلى الله عليه وسلم ، فهو من دعاة الله يدعو إلى الحق والهدى ، ومن دعا إلى ما لم يدع إليه محمد صلى الله عليه وآله سلم فهو من دعاة الشيطان يدعو إلى الباطل والضلال»[22].

الاهتداء يخضع السامع أو القارئ تداوليا إلى الاقتداء بالآية الكريمة بقوله:« فالمسلم المتبع للنبي — صلى الله عليه وسلم - لا يألو جهدا إلى كل ما عرف من سبيل ربه ، وبقيام كل واحد من المسلمين بهذه الدعوة بما استطاع ، تتضح السبيل للسالكين ويعم العلم بها عند المسلمين ، وتخلو سبل الباطل على دعاتها من الشياطين.»[23]

تتجلى من التفسير سلطة ترغيبية تكون مقترنة بفعل قائلها ، فلن يحصل الاقتناع ولا التأثير في ذهن المستمع إلا إذا كان القول الحجاجي مطابقا لعمل قائله ، لأنه يمثل حجة مادية ، والمفسِّر" من الذين يطابق قولهم فعلهم ، فالسامع يعرفه حق المعرفة.

ينتقل المفسر من وضع السامع وجعله مقصودا إلى تذكيره بأركان الدعوة ثم يعمد إلى بيان كيفية الدعوة ، وبماذا تُؤدى ، وكيف يدافع عنها فقال تعالى: ﴿ **ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .** ﴾ [**الآية:125 من سورة النحل**] ،

المُفسّر يذهب إلى تعريف الحكمة وهي الوسيلة المثلى للدعوة فيعرفها بقوله: «الحكمة هي العلم الصحيح الثابت ، المثمر للعمل المتقن المبني على ذلك العلم ، فالعقائد الحقة والحقائق العلمية الراسخة في النفس رسوخا تظهر آثاره على الأقوال والأعمال -حكمة- والأعمال المستقيمة والكلمات الطيبة التي أثمرتها تلك العقائد -حكمة-. والأخلاق الكريمة

EISSN :2602-5353 / ISSN : 2170-0583
المنارة للاستشارات

كالحلم والأناة ، هي علم وعمل نفسي- حكمة- ، والبيان عن هذا كله بالكلام الواضح الجامع - حكمة- تسمية للدال باسم المدلول» [24].

نلمح أن المفسّر يمارس حجاجا سلطويا جوهره ترغيبي ليؤثر على المخاطب ويستدرجه للتسليم والعمل بالدعوة ، حيث نراه يستعمل القرآن الكريم للاستدلال بعرض أصول الهداية في سورة الإسراء: من قوله: ﴿ **وَلاَ تَجْعَلْ مَعَ اللّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَّدْحُوراً** ﴾ [**الإسراء الآية: 39.**

إلى قوله في الآية الثامنة عشرة التي جمعت كل ما ذكرنا من العقائد الحقة ، والحقائق العلمية ، والأعمال المستقيمة ، والكلمات الطيبة ، والأخلاق الكريمة. وسمى الله ذلك كله حكمة ، فقال: ﴿**ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ.** ﴾ [**الإسراء الآية: 39.**]

يستدل في تعريفه للحكمة من آيات القرآن الكريم ، ثم يعمد إلى الاستدلال بحديث النبي- صلى الله عليه وسلم - : "إن من الشعر لحكمة" وككلمة لبيد بن ربيعة رضي الله عنه: ألا كل شيء ما خلا الله باطل فقال النبي:«أصدق كلمة قالها الشاعر» [25] ، وذلك لما في الشعر من بيان عن عقيدة حق أو خلق كريم ، أو عمل صالح أو علم أو تجربة ؛« فالحكمة التي أمر الله بها نبيه- صلى الله عليه وسلم - أن يدعو الناس إلى سبيل ربه بها ، هي البيان الجامع الواضح للعقائد بأدلتها ، والحقائق ببراهينها والأخلاق الكريمة بمحاسنها ومقابح أضدادها والأعمال الصالحة من أعمال القلب واللسان والجوارح بمنافعها ومضار خلافها». [26]

ثم ينتقل المُفسِّر بالسامع لحمله على أداء الفعل إلى اهتداء واقتداء فيقول: «هدتنا الآية الكريمة إلى أسلوب الدعوة وهو الحكمة ، وتجلت هذه الحكمة في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية. فعلينا أن نلتزمها جهدنا حيثما دعونا ، ونقتدي بأساليب القرآن والسنة في دعوتنا فيما يحصل الفهم واليقين والفقه والدين والرغبة في العمل والدوام عليه.» [27]

يجعل المفسِّر حاله من حالة أمته فيقول: « وها نحن قد بلغ الحال بنا إلى ما بلغ إليه من الجهل بحقائق الدين ، والجمود في فهمه والإعراض عن العمل به والفتور في العمل. فحق على أهل الدعوة إلى الله خصوصا المعلمين أن يقاوموا ما بيّنا من جهل وجمود وإعراض

المنارة للاستشارات

وفتور بالتزام البيان للحقائق العلمية بأدلتها والعقائد ببراهينها والأخلاق بمحاسنها والأعمال بمصالحها»[28].

يذهب المفسِّر مذهب المُحاجج ليشرح الوسيلة الثانية "الموعظة الحسنة"، وذلك بتعريف الموعظة ثم الاستدلال عليها: بالقرآن الكريم وبأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، منتقلا إلى وسائل الموعظة وكيفيتها وبما تكون. ثم يشرح ويفسر: الجدال بالتي هي أحسن وكيفية المدافعة والمغالبة لينهي تفسيره بثمرة مفادها:« أن الداعي يدعو ولا ينقطع عن الدعوة ولو لم يتبعه أحد ، لأنه يعلم أن أمر الهدى والضلال إلى الله ، وإنما عليه البلاغ وأنه يصبر على ما يلقى من إعراض وعناد وكيد وأذى ، دون أن يجازي بالمثل أو يفتر في دعوته من أذاه

لعلمه بأن الذي يجازي إنما هو الله. جعلنا الله والمسلمين من الدعاة إلى سبيله كما أمر الصابرين المحتسبين ، أمام من آمن وشكر ومن جحد وكفر غير منتظرين إلا جزاؤه ولا متكلين إلا عليه وهو حسبنا ونعم الوكيل.»[29]

إن تحديد الآليات والوسائل الحجاجية في الخطاب التفسيري تكون حسب مقاصد المُفسِّر (المُحَاجِج) وأهدافه في إقناع السامع ، إذ ينطلق المفسِّر في تفسيره من مسائل تداولية مثلت الهدف الأسمى وهي:

أ- **الشعور بالرسالة:**

الباعث الأول للتفسير والحجاج ، حول عظمة القرآن الكريم و فهمه ، وكانت جهود المفسِّر قد ظهرت في الفترة التي كان الاستعمار الفرنسي يسعى على القضاء على كل المقومات الحضارية والأساسية للمجتمع الجزائري ؛ ففسر القرآن الكريم مشافهة اعتمد فيه الحجاج ، ليضع الفرد الجزائري حين يَعلمُ دينه وما يجب عليه ، أمام مواجهة الحقيقة وهي إخراج الاستعمار الفرنسي من الجزائر.

ب-الشعور بدور التفسير في الإصلاح:

الهدف الحجاجي من التفسير هو التأثير على المتلقي لتغيير الوضع ، فقد كانت دروس المفسِّر بحق بمثابة الشرر الذي قدح العقل فتفجرت النهضة الإصلاحية في الجزائر.

ج- جمهور التفسير الشفاهي:

EISSN :2602-5353 / ISSN : 2170-0583
المنارة للاستشارات

كان المفسِّر يعلم أن جمهور السامعين فيهم الأمي والعالم، والكبير والصغير، فكان يسعى جاهدا ليكون تفسيره مؤثرا على كل الطبقات، وما ساعده هو طبيعة الخطاب الشفهي، لهذا كان لا بد من أسلوب مبسط وسطي يفهمه الأمي ويعيه المتعلم، حيث كان يبتعد عن استعمال الوحشي والدخيل والغريب ويجتنب كل معقد وغامض.

3- الآليات الحجاجية في تفسير الشيخ:

أ- **التمهيد:**

عمد إليه المفسِّر ليجعل السامع في محور التأثير، فيشوقه إلى الموضوع قبل الوصول إليه، هذا يجعله مذعنا بشكل يدفعه إلى التغيير.

ب- **الشرح اللغوي للمفردات:**

ارتباط الوحدات اللغوية داخل السياق تشكل خطابا تحكمه وظائف دلالية ونحوية وتداولية، فتكسب الوحدة اللغوية دلالة معجمية خارج الاستعمال وتكتسب أخرى حين الاستعمال والمفسر يعيد للكلمة معناها الأصلي ويقدم معناها التداولي لبيان القصد من التركيب القرآني بهدف استمالة المتلقي.

ج- **استخراج ما في النص القرآني من حقائق:** لجعل السامع مقصودا ليعمل بكل ما يقصده المتكلم وبلوغ هدفه من تفسيره

د- **تحليل مركز الآيات والعبر:**

لبيان أحكام الشارع الحكيم من كلامه، وليعمل بها المستمع. وقد رأينا هذا في تفسير **الآية- 125- من سورة النحل**، حيث مهد المفسِّر لتفسير هذه الآية بما شرع الله سبحانه وتعالى لعباده ،ثم عمد إلى شرح الحكمة والموعظة والجدال وبيان أحكامها. ثم يستخرج الحكم والحقائق من هذا ليحمل المستمع على العمل بها لينهي التفسير بثمرة تجعل المستمع يتوق لتطبيق ما كان يحثه عليه.

المنارة للاستشارات

4- الوسائل الحجاجية في تفسير الشيخ:

إن الوسائل الحجاجية في البلاغة العربية كثيرة ، وما استعمله المُفسِّر وسائلٌ تؤيد تفسيره وتقنع سامعه ؛ فالمحاجج يعمد إلى توظيف وتضمين وسائل دون غيرها باعتبارها موجهة لمتلقي هو يعرفه حق المعرفة ، وهو العالم بالطرق المؤثرة في نفسه المؤدية إلى تغييره.

عتمد المفسِّر من خلال تفسير الآية 125 من سورة النحل على:

أ- **تفسير القرآن بالقرآن:** حين فسر قوله تعالى: ﴿ **ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ.**﴾ [**النحل الأية: 125**] ، بقوله تعالى: ﴿ **لاَّ تَجْعَل مَعَ اللّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَّخْذُولاً.**﴾ [**الإسراء الأية: 22**] ،حيث فسر آية واحدة من سورة النحل بثمان عشرة آية من سورة الإسراء.

ب-تفسير القرآن بالسنة: ظهر هذا في قوله لبيان الحكمة واستدل بذلك بقول النبي صلى الله عليه وسلم إن من الشعر حكمة وقوله صلى الله عليه وسلم: "أصدق كلمة قالها الشاعر."

ج- تفسير القرآن بالرجوع إلى قول الصحابة والتابعين: يورد المفسِّر قول أبي الحسن: "الفقيه كل الفقيه من لم يقنط الناس من رحمة الله ، ومن لم يؤمنهم من مكره ، ولم يدع القرآن رغبة عنه إلى ما سواه".

د- تحكيم السياق: ذلك بربط الآية بالسياق الذي وردت فيه ، فدلالة السياق تعين على مراد المتكلم والمفسر ، فالشيخ اتبع في تفسيره الدلالة السياقية للآية ، بل أتقن وأحسن تفسيرها.

هـ- الأخذ بمطلق اللغة عمد المفسِّر في تفسير الآية بدقة مطلقة لفهمه دلالات الألفاظ حسب استعمالاتها المختلفة طبقا للدلالة المعجمية من جهة والدلالة البلاغية من جهة أخرى.(30)

فتجد المفسِّر مرة يستعمل القرآن ويتخذه وسيلة حجاجية ، ومرة السنة النبوية فأفعال وأقوال الرسول حجة ، وصحابته وتابعيه.

للسياق أثره على نفس المتلقي ، إذ يشترط فيه أن يكون موافقا لدلالة الآية المفسرة والأخذ بمطلق اللغة أن تكون عالما باللغة ، وفي هذا كله صور للحجاج ووسائل ، وكل

المنارة للاستشارات

وسيلة تتفرد بأسلوب ، وتغيير الأسلوب من هذا لآخر أقدر على المستمع للتأثير فيه وبلوغ المراد ويمكن حصر هذه الوسائل وتسميتها بالوسائل الحجاجية التفسيرية التي تخص الخطاب التفسيري أكثر من غيره.

- **الآية:125 من سورة النحل:**

قال تعالى: ﴿ **ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ** ﴾ [31].

قبل التعرض لطريقة المُفسّر الحجاجية في التفسير ،نعرض تعريفا للحجاج:

الحجاج:«هو العملية التي من خلالها يسعى المتكلم إلى تغيير نظام المعتقدات والتصورات لدى مخاطبه بواسطة الوسائل اللغوية»[32].

"أدع إلى سبيل ربك":

- تمهيد لما شرع الله لعباده.

- سبب تسمية: «سبيل».

- إضافة كلمة سبيل إلى الله تعالى.

- شرح لغوي(نحوي): حذف معمول(أدع)

- اهتداء: الدعوة إلى ما دعا إليه النبي.

- اقتداء: في المسلم الذي يتبع النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

- أركان الدعوة: الداعي ، والمدعو ، والمدعو إليه ، والبيان عن الدعوة.

" بالحكمة والموعظة الحسنة":

- بيان كيفية الدعوة وطريقتها.

- تعريف الحكمة.

EISSN :2602-5353 / ISSN : 2170-0583
المنارة للاستشارات

- استدلال واستنتاج: أصول الهداية استنتاج ، واستدلال بثماني عشرة آية من القرآن الكريم من سورة الإسراء.

- ثم الاستدلال بالحديث النبوي الشريف عن الحكمة.

- اهتداء واقتداء: الإهتداء إلى أسلوب الدعوة وهو الحكمة.

- ثم بيان الحال: بيان حال المسلمين من هذا.

- ينتقل الشيخ إلى الطريقة الأخرى:

"و الموعظة الحسنة": يُعّرف الوعظ ويستدل عليه بحديث الرسول- صلى الله عليه وسلم- ، ثم بقوله تعالى: ﴿**وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِ.**﴾ [**النساء الأية:66**] ، **وقوله: (يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً.** ﴾[**النور الآية:17.**]

وقوله صلى الله عليه وسلم في حديث رواه "الترمذي" وغيره:**" وعظنا رسول الله — صلى الله عليه وسلم موعظة بليغة وجلت منها قلوبنا وذرفت منها العيون"**[33]. وأما طريقتها: يكون بذكر الأيام ، بذكر أيام الله في الأمم الخالية ، ويكون بغيرها كتذكير الإنسان بأحوال نفسه والاستدلال بكل ما تجده في مواعظ القرآن.

1- اهتداء واقتداء وتحذير: الدعوة بالموعظة الحسنة: مواعظ القرآن ، مواعظ النبي وأن تجتنب التعقيد والسجع والطول ، ويستدل الشيخ بما صح عن الصحابة- رضوان الله عليهم- ثم يعرض الجدال بالتي هي أحسن ويحذر من المدافعة والمغالبة وأنها فطرة في الإنسان ويستدل بحديث الرسول صلى الله عليه وسلم :"إن أبغض الرجال عند الله الألد الخصم"[34] ، ثم يختم تفسيره لهذه الآية بثمرة ؛ أي العبرة من هذا التفسير ومن هذه الآية الكريمة. وفيما يلي جدول يبين وسائل واستخدامات الشيخ في تفسيره.

الجدول 1 : وسائل الحجاج في الخطاب التفسيري

- الآية الكريمة: الأية 125 من سورة النحل:

المنارة للاستشارات

قال تعالى: ﴿ **ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ.** ﴾

المقدمات	- الدعوة وطريقتها. - الحكمة. - الموعظة الحسنة. - الجدال بالتي هي أحسن.
التمهيد	جلب القارئ لجو الموضوع للتأثير عليه.
الآيات القرآنية	دحضاً لأيّ إنكار متوقع من المتلقي.
الأحاديث	تدعيم الأحكام القرآنية وجعلها أكثر إذعاناً وإقناعا.
الحقائق	لتطبيق ما يدعو إليه المفسر من خلال تفسيره للخطاب القرآني.
الشرح اللغوي	لجلاء معنى الآيات لأنّ المستمع يختلف من عالم إلى أميّ.

الشّكل1 (وسائل الحجاج في الخطاب التفسيري).

خاتمة:

تبين من هذه الإطلالة على الحجاج في الخطاب التفسيري لدى"الشيخ عبد الحميد بن باديس" أن:

- الخطاب التفسيري يقع تحت سلطة الخطاب الأصلي وذلك مخافة تحريفه أو تأويله.
- ويقع تحت سلطة المتلقي فعلى المفسر مراعاة حالة المتلقي.
- إنتاج الخطاب التفسيري في بعده الحجاجي يعتمد على العناصر الآتية: المفسِّر، النص الأصلي، المتلقي.

EISSN :2602-5353 / ISSN : 2170-0583
المنارة للاستشارات

- الآليات والوسائل الحجاجية في الخطاب التفسيري تتحدد كلما تحددت طبيعة النص المفسَّر والمتلقي الذي يوجه إليه الخطاب.

- الحجاج مطبوع في الخطاب التفسيري بدءا بنية المفسر(المحاجج)، وانتاجه لخطاب إلى نص أصلي لمتلقي.

فالشيخ "عبد الحميد بن باديس" هو المفسِّر، والنص المفسَّر هو القرآن الكريم والمتلقي الخاص هو الشعب الجزائري، والمتلقي العام العالم الإسلامي، والمتلقي الأشمل الإنساني. فهدفه من تفسيره أن يبصِّر الفرد الجزائري بأحقيته في الحرية، وأن عليه الجهاد في سبيل ذلك، فتفسير القرآن الكريم ليس هدفه الوحيد بل هناك أهداف أخرى ثانوية من جراء تفسيره للقرآن الكريم، والخطاب التفسيري يراعي الفعل التأثيري مع مراعاة الفعل الإنجازي.

5- مصادر البحث و مراجعه

القرآن الكريم، رواية ورش.

أحمد رحماني، مناهج التفسير الموضوعي وعلاقتها بالتفسير الشفاهي، عالم الكتب الحديث أربد، الأردن، الطبعة 1، 1429هـ، 2008.

أحمد بن عثمان رحماني، التفسير الموضوعي نظرية وتطبيقا، منشورات جامعة باتنة.

توفيق محمد شاهين، محمد الصالح رمضان، تفسير ابن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، تعليق أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية بيروت ،لبنان ،1995.

الترمذي أبو عيسى محمد بن عيسى، الجامع الصحيح، سنن الترمذي، كتاب العلم ، تحقيق أحد شاكر، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

عبد القادر منصور، موسوعة علوم القرآن، دار القلم العربي، سورية، حلب، الطبعة 1، 2002.

عبد الحميد بن باديس، مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، الطبعة1، 1982.

عبد الله صولة، الحجاج أطره و منطلقاته وتقنياته من خلال مصنف في الحجاج الخطابة الجديدة لبرلمان وتيتيكان، فريق البحث في البلاغة والحجاج، أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، إشراف حمادي صمود، كلية الآداب، منوبة، تونس.

الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري ،تحقيق مصطفى ديب، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، الطبعة الثالثة، 1408هـ- 1987م.

الهوامش و الإحالات

EISSN :2602-5353 / ISSN : 2170-0583
المنارة للاستشارات

[1]-ينظر ، حسين خمري ، نظرية النّص من بنية المعنى إلى سيميائية الدال ، الدار العربية للعلوم ناشرون ، بيروت ، الطبعة الأولى ، 2007 ، ص:87.

[2]- نفسه ، ص:87.

[3]- عبد القادر منصور ، موسوعة علوم القرآن ، دار القلم العربي ، سورية ، حلب ، الطبعة 1 ، 2002 ، ص:175.

[4]- نفسه ، ص:173.

[5]- ينظر ، حسين خمري ، نظرية النص ، ص:84.

[6]- ينظر ، نفسه ، ص:84.

[7]- نفسه ، ص: 85.

[8]- أحمد رحماني ، مناهج التفسير الموضوعي وعلاقتها بالتفسير الشفاهي ، عالم الكتب الحديث أربد ، الأردن ، الطبعة 1 ، 1429هـ ، 2008 ، ص:12.

[9]- توفيق محمد شاهين ، محمد الصالح رمضان ، تفسير ابن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير ، تعليق أحمد شمس الدين ،دار الكتب العلمية بيروت ،لبنان ،1995 ،ص:20.

10- نفسه ، ص:20.

11- ينظر ، أحمد بن عثمان رحماني ، مناهج التفسير الموضوعي وعلاقتها بالتفسير الشفاهي ، ص:215.

12- نفسه ، ص:219.

13- ينظر ، نفسه ، ص:215 ، 216.

14- ينظر ، أحمد بن عثمان رحماني ، التفسير الموضوعي نظرية وتطبيقا ، منشورات جامعة باتنة ، ص:75.

15- نفسه ، ص:72.

16- نفسه ، ص:76.

17- ينظر ، عبد الحميد بن باديس ، مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير ، دار البعث ، قسنطينة ، الجزائر ، الطبعة1 ، 1982 ، ص: 11 ، 12.

18- توفيق محمد شاهين ، محمد الصالح رمضان ، تفسير بن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير ، ص:318.

19- نفسه ، ص:318.

20- نفسه ، ص:319.

21- نفسه ، ص:319.

22- نفسه ، ص:319.

23- توفيق محمد شاهين ، محمد الصالح رمضان ، تفسير بن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير ، ص:319.

24- نفسه ، ص:320.

25- توفيق محمد شاهين ، محمد الصالح رمضان ، تفسير بن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير ، ص:320.

المنارة للاستشارات

[26] - نفسه ، ص:321.
[27] - نفسه ، ص:321.
[28] - نفسه ، ص:321.
[29] - توفيق محمد شاهين ، محمد الصالح رمضان ، تفسير بن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير ، ص:328.
[30] - ينظر ، أحمد رحماني ، التفسير الموضوعي نظرية وتطبيقا ، منشورات جامعة باتنة ، ص:62 ، 65.
[31] - سورة النحل ، الآية:125.
[32] - عبد الله صولة ، الحجاج أطره و منطلقاته وتقنياته من خلال مصنف في الحجاج الخطابة الجديدة لبرلمان وتيتيكان ، فريق البحث في البلاغة والحجاج ، أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم ، إشراف حمادي صمود ، كلية الآداب ، منوبة ، تونس ، ص:350.
[33] - الترمذي أبو عيسى محمد بن عيسى ، الجامع الصحيح ، سنن الترميذي ، كتاب العلم ، باب ما جاء بالأخذ في السنة واجتناب البدع ، الجزء الخامس ، رقم 2676 ، تحقيق أحد شاكر ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ص:44.
34- الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري ، صحيح البخاري ، كتاب المظالم ، باب "إذا أذن إنسان لآخر شيئًا جاز" ، الجزء الثاني ، رقم 2320 ، تحقيق مصطفى ديب ، دار ابن كثير ، اليمامة ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، 1408هـ- 1987م ، ص: 868.

EISSN :2602-5353 / ISSN : 2170-0583
المنارة للاستشارات